فن الجاحظ

١

التطبيق السادس والسابع

عبد الله بن سوار و إلحاح الذباب

كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار ، لم ير الناس حاكماً قط و لا زميتاً و لا ركيناً ، و لا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه و ملك من حركته مثل الذي ضبط و ملك . كان يصلي الغداة في منزله ، و هو قريب الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه فيحتبي ، و لا يتكي . فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، و لا يلتفت ، و لا يحل حبوته ، و لا يحول رجلاً عن رجل ، و لا يعتمد على أحد شقيه، حتى كأنه بناء مبني ، أو صخرة منصوبة ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر ، ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى محله ، بل كثيراً ما كان يكون ذلك إذا بقي عليه من قراءة العهود و الشروط و الوثائق ، ثم يصلي العشاء و ينصرف .

فالحق يقال : لم يقم في طول تلك المدة و الولاية مرة واحدة إلى الوضوء ، و لا احتاج إليه ، و لا شرب ماء و لا غيره من الشراب . كذلك كان شأنه في طوال الأيام و في قصارها ، و في صيفها و في شتائها . و كان مع ذلك لا يحرك يده ، و لا يشير برأسه . و ليس إلا أن يتكلم .

فبينما هو كذلك ذات يوم ، و أصحابه حواليه ، و في السماطين بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذباب ، فأطال المكث . ثم تحول إلى مؤق عينه ، فرام الصبر في سقوطه على المؤق ، و على عضه و نفاذ خرطومه كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبته ، أو يغضن وجهه ، أو يذب بأصبعه .

فلما طال ذلك عليه من الذباب و شغله و أوجعه و أحرقه ، و قصد إلى مكـــان لا يحتمل التغافل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض ، فدعاه ذلك إلـــى أن والى الإطباق و الفتح ، فتنحى ريثما سكن جفنه ، ثم عاد إلى مؤقه بأشـــد مـــن مرته الأولى ، فغمس خرطومه في مكان كان قد أوهاه قبل ذلك . فكان احتماله لـــه أضعف، و عجزه عن الصبر في الثانية أقوى ، فحرك أجفانـــه و زاد فـــي شـــدة الحركة و في فتح العين ، و في تتابع الفتح و الإطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره و بلغ مجهوده، فلم يجد بدّاً من أن يذب عن عينه بيده ففعل ، و عيون القوم إليه ترمقه ، و كأنهم لا يرونه . فتنحى عنه بقدر ما رد يده و سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعـــه ، ثـــم ألجأه إلى أن ذب عن وجهه بطرف كمه ، ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك ، و علم أن فعله كله بعين من حضره من أمنائه و جلسائه . فلما نظروا إليه فقال : " أشـــهد أن الذباب ألح من الخنفساء ، و أزهى من الغراب ، و أستغفر الله . فمـــا أكـــثر مـــن أعجبته نفسه فأراد الله عز و جل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً . و قـــد علمت أني عند الناس من أزمت الناس ، فقد غلبني و فضحني أضعف خلقه . ثـــم تلا قوله تعالى :

" و إن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب و المطلوب " .

* * *

أضواء على النص

في ضوء النقد الحديث يمكننا أن نعد هذا النص نمطاً من الأدب القصصـــي هو في الحقيقة " الأقصوصة " أو المسرحية ذات الفصل الواحـــد و مـــن طبيعـــة الأقصوصة اعتمادها على اللمح و على التركيز دون أن تتعدد فيها الشـــخصيات ، وذلك بأن تقتصر على اثنتين أو ثلاث .

و ثمة شخصيتان في أقصوصتنا من الناحية الفنية " شخصية القاضي " و " شخصية الذبابة " بالإضافة إلى جمهور الناس الذين ينحصر دورهم بالمشاهدة و الاكتفاء بالانفعال دون الفعل .

أ- شخصية القاضي :

لقد أجاد الجاحظ رسم ملامح القاضي ، غير أنه اعتمد على التركيز في اهتمامه بجانب معين من شخصيته هو جانب الوقار و التزمت دون سائر صفاته و طباعه ، فالقصة القصيرة أو الأقصوصة تعتمد على حسن الاختيار و تسليط الضوء ، فالقاضي كما صوره الجاحظ حريص على الوقار متسم بالتزمت مقتصد في الحركة ، مثلاً (لا يتكئ و لا يعتمد على أحد شقيه و لا يلتفت) .

و مع ذلك فالقاضي يتحرك و لكن حركة المضطر التي لا غنى عنها ، فإن قام فإنما يقوم لأداء فريضة الصلاة بل إن ضبطه لنفسه و تشدده في مراقبة أعضائه جعله يكتفي بوضوء واحد طوال يومه . و كان صارماً في نظام حياته و سلوكه في عمله حريصاً كل الحرص و بخاصة أمام الناس الذين لم يجدوه يوماً مذ عرفوه يشرب ماء أو سواه أو يحرك يده أو يشير برأسه في جميع الفصول و الأيام.

و كأن الجاحظ يريد أن يبين أن كل ما في الحياة يتغير و يتحرك ، حتى الأيام تطول و تقصر و حتى الفصول تروح و تغدو .. أما هو فعلى الرغم من دورة الفلك و تعاقب الفصول و تغير المناخ و اختلاف الأيام فباق على جموده و ثبوته .

ب- شخصية الذبابة :

و الذبابة هي الشخصية الأخرى المعارضة في التمثيلية ذات الفصل الواحد أو الأقصوصة و هي في سماتها و خصائصها مغايرة مناقضة لشخصية القاضي ، فبقدر ما كان القاضي ثابتاً جامداً كانت الذبابة موارة دائبة الحركة ، لا تكاد تستقر

على حال ، إنها في كر و فر ، تسقط على أنف القاضي و تغمس خرطومها فيه ، ثم تتحول إلى مؤق عينه ، و تتابع ذلك و تكرّره بلجاجة و إلحاح .

ج- الصراع بين الشخصيتين :

و من خلال هاتين الشخصيتين المتعارضتين اللتين تتمثل فيها الحركة و الجمود يرسم لنا الجاحظ مشهده الطريف بقلم صناع (و بضدها تتميز الأشياء)، و بنتيجة إبراز الجاحظ لهذا التعارض و التمايز مهد السبيل لتوليد عنصر الصراع في الخبر المروي الذي استطاع بموهبته أن يقلبه إلى أقصوصة فنية .

* * *

لقد عني الجاحظ بتصوير عنصرين بارزين و لاصقين بالشخصيتين المتعارضتين فعبر عن السكوت من خلال كلمات اختارها لتعين على رسم الصورة التي يريدها للقاضي (زميت – وقور – حليم) دون أن يعتمد الجاحظ على التصوير البياني أو الاستعانة بالخيال لبلوغ مقصده ، إلا ما تطلبه أساس الوصف و كان في صلب المعنى من مثل تشبيهه للقاضي بأنه كبناء مبني أو صخرة منصوبة ، رامياً من وراء ذلك إلى الإلحاح على صفة الثبوت و الجمود و الامتناع عن الحركة لدى القاضي .

و من جهة أخرى فإن حرص الجاحظ على تصوير جمود القاضي جعله يكرر ألفاظاً بعينها ليوحي إلينا بأن وضعية القاضي واحدة لا تتبدل و لذلك كان اللفظ أيضاً لا يتبدل ، من مثل عبارة (لا يزال كذلك) التي كررها مرات بنصها، و التكرار في الأصل غير محمود ، و لكنه قد يكون لازماً لضرورة بلاغية في مجال الإلحاح العاطفي و التوكيد على مواقف معينة من حزن أو حب و ما إلى ذلك.

هذا النص من كتاب الحيوان عمد فيه الجاحظ إلى تصوير طبـاع الذبـاب و إلحاحه ، و لم يكن الجاحظ يقتصر في موضوع الحيوان على طريقـة واحـدة خلال كتابه هذا في سبيل وصف أنواع الحيوان و تصوير خصائصه و سماته لأن الموضوع هو الذي كان يتحكم في المنهج ، و يملي على الكاتب طريقـة التنـاول و المعالجة . و من هنا كان الجاحظ يعمد أحياناً إلى طرائق علمية خالصة يعتمـد بعضها على الملاحظة و المعاينة ، أو يقتصر على وسائل العقل المحض في الحجة و المنطق و الاستدلال و البرهان . فمعالجة الجاحظ لموضوع إلحاح الذباب في هذا النص إنما يعتمد على التصوير بالدرجة الأولى ، و بذلك تنـاول ظـاهرة علميـة بطريقة فنية ، فعلى الرغم من أن الغاية علمية فإن تناول الجاحظ لموضوعه هذا قد جعل نصه أدباً محضاً وفناً خالصاً ، فالعمدة في الأسلوب و في الأداء و في التناول و على ذلك فإن كل موضوع علمي في الأصل يمكن تناوله من وجهة فنية.

و هكذا فإن الحدود بين العلم و الأدب في كثير من نصوص الحيوان كـانت متداخلة مختلفة المعالم ، كما أن العلم نفسه في تلك المرحلة السالفة لم يكن اسـتقل عن موضوعه و رسائله في الأدب ، و من هنا فإن قارئ هذا النص يكاد يغيب عنه هدفه الأساسي و هو تصوير طباع الذباب فينصرف ذهنه عن ذلك إلى متابعة حال القاضي .

لقد كان قوام فن الجاحظ براعته في رصد عنصر الحركـة سـواء لـدى القاضي أو الذباب و تدرجه في رصده هذه الحركة المتزايدة ، و بذلك كان يشـدنا إلى وصفه في تدرج نفسي مماثل ، و يبدو لنا الجاحظ أخيراً من خلال النص أديبـاً فكها يجنح إلى المرح و يجيد تصوير السبل إليه ، لقد استطاع أن ينبـط الابتسـام و الضحك من كيان قاض مـهيب و ذبابة حقيرة ، كل ذلك بأسلوب اتسم بالبساطة و اعتمد على اليسر و الانسياب دونما إيغال في الاستعارة أو اجتلاب للمحسنات ،

فالعبارة مألوفة لا يعتورها نادر أو غريب يحد من تدفقها ، و هـذا قـوام العمـل القصصي بحيث يكون التعبير مطابقاً لمقتضى الحال ، و المعنى هو الذي يجلـب اللفظ ، و في ذلك يقول الجاحظ نفسه :

" ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، و يوازن بينـها و بيـن أقـدار المستمعين و بين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة كلاماً ، و لكل حالة من ذلـك مقاماً ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني " .

و مما قاله أيضاً :

" و أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثـيره ، و معنـاه فـي ظـاهر لفظه ".

* * *

نص من كتاب البخلاء

ابراهيم بن السندي :

٢

و حدثني إبراهيم بن السندي ، قال : كان على ربض الشـاذروان ، شيخ لنا ، من أهل خراسان . و كان مصححاً بعيداً عن الفساد و من الرشا و مـن الحكم بالهوى ، و كان حفياً جداً ، و كذلك كان في إمساكه و في بخله و تدنيقه فـي نفقاته ، و كان لا يأكل إلا ما لا بد منه و لا يشرب إلا ما لا بد له منه . غير أنـه إذا ، كان في غداة كل جمعة حمل معه منديلاً فيه " جرذقتان " و قطع لحم سـكباج مبرد ، و قطع جبن ، و زيتونات ، و صرة فيها ملح ، و أخـرى فيـها أشـنان ، و أربع بيضات ليس منها بد ، و معه خلال . و مضى وحده ، حتى يدخل بعـض بساتين الكرخ .و ينظر موضعاً تحت شجرة وسط خضرة و على ماء جار . فـإذا

وجد ذلك جلس ، و بسط بين يديه المنديل ، و أكل من هذا مرة و من هذا مـــرة .
فإن وجد قيم ذلك البستان رمى إليه بدرهم ، ثم قال : اشتر لي بهذا أو أعطني بـهذا رطباً ــ إن كان في زمان الرطب ــ أو عنباً أن كان في زمان العنب ــ و يقــول له: إياك إياك أن تحابيني ، و لكن تجود لي ، فإنك إن فعلت لم آكله و لم أعد إليك. واحذر الغبن فإن المغبون لا محمود و لا مأجور . فإن أتاه به أكل كل شيء معه ، و كل شيء أُتي به ، ثم تخلل و غسل يديه ، ثم تمشى مقدار مائة خطوة ، ثم يضع جنبه، فينام إلى وقت الجمعة ، ثم ينتبه فيغتسل ، و يمضي إلى المسجد . هذا كان دأبه كل جمعة .

قال إبراهيم : فبينما هو يوماً من أيامه يأكل في بعض المواضع ، إذ مر به رجل فسلم عليه ، فرد السلام ، ثم قال : هلم عافاك الله . فلما نظر إلى الرجل قـــد انثنى راجعاً ، يريد أن يطفر الجدول أو يعبر النهر ، قال له : مكانك ، فإن العجلـة من عمل الشيطان . فوقف الرجل ، فأقبل عليه الخراساني و قال : تريـــد مـــاذا ؟ قال : أريد أن أتغدى . قال و لم ذاك ؟ و كيف طمعت في هذا ؟ و من أبـــاح لــك مالي ؟ قال الرجل : أو ليس قد دعوتني ؟ قال : ويلك ، لو ظننت أنك هكذا أحمــق ما رددت عليك السلام . الآيين فيما نحن فيه أن تكون إذا كنت أنا الجالس و أنــت المار ، أن تبدأ أنت فتسلم ، فأقول أنا حينئذ مجيباً لك و عليكم السلام . فإن كنـــت لا آكلاً شيئاً سكت أنا و سكت أنت . و مضيت أنت و قعدت أنا على حـالي . و إن كنت آكل فهاهنا آيين آخر ، و هو أن أبدأ أنا فأقول : هلم ، و تجيب أنت فتقـــول: هنيئاً. فيكون كلام بكلام . فأما كلام بفعال و قول بأكل فهذا ليس من الإنصـــاف ، وهذا يخرج علينا فضلاً كبيراً ، فقال : فورد على الرجل شيء لم يكن في حسابه .

فشهر بذلك في تلك الناحية ، و قيل له : قد أعفيناك من السلام و من تكلف الرد . قال : ما بي إلى ذلك حاجة ، إنما هو أن أعفي أنا نفسي من (هلم) ، و قـد استقام الأمر .

أضواء على النص :

إن استعراب الأعاجم بكثرة و اختلاط العرب بهم في العراق على نطاق واسع كان لهما نتائج اجتماعية و نفسية و أدبية في العصر العباسي ، و هذا أدى إلى ظهور فئة أو طبقة من الناس تبدلت لديها المفاهيم العربية الأصيلة ، و القيم المثلى ، فاندثرت الشجاعة لدى أناس ، و حل محلها الدهاء و السياسة و إيثار السلامة . كذلك ضمرت خصلة الكرم لدى أنـاس آخرين فآلت إلى التوفير والاقتصاد و حسن التدبير .

يصور لنا الجاحظ أحد النماذج البشرية التي تتمثل فيها تلك الطباع المتبدلة فقد انطوى الشيخ الخراساني على صفة (البخل) و بوسعنا أن نتبين حكايته التي سردها الجاحظ من خلال عدة مراحل :

يبدأ الجاحظ كعادته برسم ملامح الشخصية الأساسية (شخصية الخراساني) على غرار ما فعل بصدد قاضي البصرة فيبين لنا استواء هذه الشخصية في جانب منه ، و أنه كان مدققاً بعيداً من الفساد و الرشوة و من الحكم بالهوى ، ثم يكشف في مقابل ذلك عن الجانب الآخر المنحرف في شخصيته ، و لعله قصد من ذلك أن يبين لنا أن كثيراً من الناس الذين يسعون بيننا هم أسوياء في ظاهر أمرهم ، ولكنهم في باطنهم ينطوون على تناقض غريب يتجلى في شحهم و تكالبهم على المال . فهذا الشيخ معروف بإمساكه و بخله و تدنيقه في نفقاته حتى إنه لا يأكل إلا ما لا بد منه و لا يشرب إلا ما لا بد منه .

و بعد أن وصف الجاحظ بخيله على هذا النحو النظري العام و بعبارات مقتضبة جنح إلى عرض مثال محسوس و عملي من واقع سلوكه في الحياة ، فهذا الرجل كان له نظام خاص رتيب في عيشه يلتزمه غداة كل جمعة حين يحمل معه صرة غدائه .

المرحلة التالية في سلوكه أنه كان يقصد إلى مكان معلوم في بساتين الكرخ و يتوغل داخلها حتى يطمئن إلى مكان يألفه بعيداً عن الأنظار و عندئذ يبسط صرته ، و قد يجود بدرهم على البستاني ليقدم إليه بعض الرطب أو العنب .

يقطع السياق على عيشه الرتيب حادث لم يكن في الحسبان إذ يصادف الشيخ في خلوته عابر سبيل فيلقي التحية و هو ماض في طريقه فيرد الخراساني السلام عليه ، و يبدو أنه أراد أن يتلطف فأضاف قائلاً : " هلم عافاك الله " . و هنا يواجه الخراساني موقفاً مفاجئاً حرجاً حين انعطف الرجل نحوه قاصداً إليه ، و إذ يدرك الخراساني أن الرجل جاد في مشاركته طعامه تستيقظ فيه نزوة البخل فينبري له قائلاً بعبارات متدفقة تنم على حدة و حماسة و بات يقول مهدداً : " و لم ذاك ؟ و كيف طمعت في هذا ؟ و من أباح لك مالي ؟ " ثم يشرع الخراساني في إلقاء كلام طويل على مسامع الرجل يفهمه فيه أن الأمر لم يكن جداً ، و أنه قد فهم من كلامه أكثر مما ينبغي له ، إذ لا يعدو ذلك حدود المجاملة ، و يجنح إلى شيء من القياس المنطقي عندما يبين أنه كلام يجب أن يقابله كلام ، و أن " هلم " ينبغي أن يكون جوابها " هنيئاً " و على ذلك لن يقبل أن يكون كلام بعمل و قول بأكل لأن هذا ليس من الإنصاف .

و كان آخر ما في الأمر أن الخراساني اعتبر بما مر به و آلى على نفسه أن يعفيها بعد اليوم من التورط في دعوة أحد خوفاً من سوء العاقبة .

أ - الأداء الفني :

تقوم طريقة الجاحظ على مراعاة تسلسل العرض و التدرج بالقصص حين يرسم ملامح " الشخصية " التي آثر اختيارها لتكون محوراً لموضوعه الأساسي وهو " البخل " و هذا الرسم نظري عام . ثم ينتقل من العام الكلي إلى الخاص الجزئي ، و ذلك بسرد حكاية تكون مصداقاً لطباع الشخصية التي عرض علينا ملامحها أول الأمر . ثم يعمد إلى الكشف عن حقيقة النزعات النفسية التي كانت

تستتر وراء زيف الحركات و الأوضاع المصطنعة و كلمات المجاملة ، على غرار ما كان أيضاً من اصطناع الوقار لدى قاضي البصرة .

و من سمات البراعة في فن الجاحظ في تحليل شخصياته أنه يستكمل صورة البخيل بعرض فلسفة البخل على لسان البخيل نفسه ، فالخراساني يمثل ما شاع في العصر العباسي من تشويه القيم و انحراف المثل ، و من الجنوح إلى التماس الحجج و البراهين للدفاع عن المفاهيم و العادات المكتسبة و الدخيلة في المجتمع العباسي الجديد . فكما أورد الجاحظ في مستهل كتابه (البخلاء) دفاع سهل بن هارون و هو من أصل فارسي عن البخل كذلك يعمد الشيخ الخراساني إلى تلقين الرجل العابر درساً مسهباً في السلوك إذ لا بد من اتباع بعض مظاهر التمويه و النفاق التي تستتر وراء نقاب اللباقة و الأعراف السائدة ، و معالم التكلف و التصنع . فالشخصيات في هذا العصر باتت مصطنعة و مطلية بقشرة الحضارة الزائفة و المظاهر الاجتماعية الكاذبة ، و لم تعد الفطرة محور السلوك الإنساني كما كان الشأن في الماضي . ينطبق هذا على الشيخ الخراساني انطباقه على قاضي البصرة ، و هكذا يقول الخراساني للرجل بلهجة المعلم الناصح : (تبدأ أنت فتسلم فأقول أنا حينئذ مجيباً لك : و عليك السلام ، فإن كنت لا آكل شيئاً سكت أنا وسكت أنت .. و إن كنت آكل فهنا هنا آيين آخر ، و هو أن أبدأ أنا فأقول : هلم ، و تجيب أنت فتقول : هنيئاً) .

هذه الطريقة في الأداء و التفريع في أوجه الحالات و عرض الأمر وضده،إنما هي في الحقيقة مظهر من مظاهر انتشار الثقافة الفلسفية و شيوع علم الكلام و غلبة الأساليب السفسطائية مما عد إحدى السمات المميزة للحياة الاجتماعية و الثقافية و الفكرية للعصر العباسي .

ب – السمة الواقعية :

يؤثر الجاحظ أن يبقى في فلك الواقع و أن يستمد منه مادة فنه ، و هذا جلي في كتاب (الحيوان) و في كتاب (البخلاء) ، و كم في عالم الحقيقة و الواقع من تراه يغني عما في عالم الوهم و الخيال ، و المجتمع العباسي الذي كان يضطرب بمختلف الظواهر و النزاعات كان معيناً لا ينضب للجاحظ و أمثاله من حيث المضمون و المحتوى .

أما واقعية الأسلوب فتتجلى في الاعتماد على يسر العبارة و اللفظ كما تتجلى الواقعية الفنية في جنوح الجاحظ إلى رصد الوقائع مهما تبدو ضئيلة الشأن وبطريقة تفصيلية ، و مثل هذا المنحى نجده لدى أتباع المذهب الواقعي من أدباء القصة في الغرب ، فالجاحظ يذكر أن الخراساني يحمل معه منديلاً و جرذقتين ولحم سكباج مبرد ، و قطع جبن و زيتونات و صرة ملح و أربع بيضات ، و من ذلك أيضاً رصده لحركات الخراساني التفصيلية من نحو (أكل كل شيء معه و كل شيء أتي به ثم تخلل) و كان قصد الجاحظ من وراء هذا الرصد و التسجيل المفصل أن يبرز ظاهرة التدقيق في شخصية الخراساني و الحرص و رتابة العيش، و كيف أن بعض الناس يصبحون أسرى لما اعتادوا مستعبدين لما ألفوا حتى يصبحوا في حياتهم آخر الأمر أشبه بآلات تتحرك بمقدار و تدور في فلك مرسوم .

و لعل السهولة مفتاح فن الجاحظ و أسلوبه ، و يبدو أنه اتخذ السهولة مذهباً في نثره عامة ، و في نتاجه القصصي بوجه خاص ، و الحقّ أن يسر العبارة وتدفقها و انسيابها من أبرز سمات الفنّ القصصي الحديث . فالقصة فن طريف يحظى بسيرورة كبيرة بين الجماهير ، و ليس فناً للخاصة كالشعر ، و من هنا لا بد له أن يغدو مفهوماً و سائغاً للناس كافة دون أن تشوبه ألفاظ غريبة قد تعوق تدفقه و انطلاق سياقه .

و أخيراً على الرغم من كون الجاحظ علَما من أعلام البيـــان فإنــه كـــان يترخص في قبول كلمات عامية أو أعجمية دخيلة ، فكان يدخلها في أسلوبه لغرض بلاغي و فني محض ، و من هنا وجدنا لديه كلمات عديدة فارسية مثل (الجرذقة – سكباج – الآيين – شاذروان ...) فلم يتشدد في رفضها لأنها غدت علـــى ألســنة الناس و تعربت ، و ما الفن الحقيقي إلا ما كان مستمداً من لغة الحياة .